

دور السياق في تحديد دلالة اللفظ

أ. نويج مسعودة

جامعة الجلفة

ملخص:

كان لعلماء العربية الأوائل اهتمام كبير بالسياق، إذ أدركوا أثره في توجيه المعنى وتحديدده، ووجدوا أن ظاهرة الألفاظ المفردة لا يعين على فهم النصوص فهما صحيحا، وقد كان للنظم القرآني أثر بالغ في ذلك، فحين بدأوا بتفسيره أدركوا أن له نظمه الخاص به، وهو نظم فريد مؤثر ليس له نظير، لكنه متعدد الوجوه والمعاني. ونجد هذا الاهتمام لدى علماء العربية كالبلاغيين واللغويين والنحاة، ولدى المفسرين وعلماء الأصول... وغيرهم.

الكلمات المفتاحية: السياق - الدلالة - اللفظ - النص - المعنى

Abstract

The early Arab scholars had a great interest in the context. They realized its effect in directing and defining meaning. They found that the phenomenon of single words does not help to understand the texts properly. The Qur'anic systems had a profound impact on this. When they began to interpret it, they realized that it had its own systems, Unique, influential, unmatched, but multifaceted and meaningful. We find this interest among the Arab scholars Kalalagayin and linguists and grammarians, and the interpreters and scholars of assets ... and others..

key words: Context - Significance - Pronunciation - Text - Meaning .

لقد عُني علماء العربية، ومن خاضوا في دراسة النص القرآني، منذ عهد مبكر بالإشارة إلى المعاني السياقية المختلفة للفظ الواحد، وتشهد لذلك كتب الوجوه و النظائر المتعددة .

ولعلّ أول ما نوجه إليه عنايتنا هنا هو اهتمام البلاغيين بدور السياق في تحديد الدلالة وتوجيهها، حتى إنهم بنوا فهم النص وإدراك مغزاه على ما يمليه سياقه الذي يرد فيه.. وقد تمثل لديهم في اتجاهين:

الأول: مفهوم السياق الذي أرسى قواعده القاضي عبد الجبار، ووضع هيكلته " عبد القاهر الجرجاني"، والذي يقوم على أساس أن الكلمة لا قيمة لها في حالة إفرادها، وإنما يكون حُسنها ورداءتها في نظمها.

الثاني: العناية بالسياق الحالي، وذلك بربطهم الصياغة بالسياق و تأكيدهم قاعدة: " لكل مقام مقال"، وضرورة مراعاة التبليغ لمقتضيات الأحوال والمقامات مثل حال المتكلم، والمخاطب، والظروف الزمانية والمكانية والاجتماعية والنفسية المحيطة بهما .

فالسياق هو علاقة الكلمة مع ما قبلها وما بعدها من كلمات الجملة، وهو الذي يعين قيمة الكلمة، ويخلصها من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها، فيخلق لها قيمة حضورية ولهذا يصرح " فيرث " بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية¹.

وتعد نظرية السياق على النحو الذي حدده " فيرث " من أفضل المناهج لدراسة المعنى بسبب ما تميزت به من عناية بالعناصر اللغوية والاجتماعية، والابتعاد عن كثير من الأفكار البعيدة عن الواقع اللغوي، وقد بين " ستيفن أولمان " دور هذه النظرية في قوله: « إن نظرية السياق إذا طبقت بحكمة تمثل حجر الأساس في علم المعنى و قد قادت بالفعل إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة في هذا الشأن . »²

غير أن هذا لا يعني أن كل اللغويين قد اعترفوا بهذه الحقيقة ، بل على العكس من ذلك فقد وُجد من بينهم من يرفض رفضاً قاطعاً الاحتكام إلى السياق في دراسة علم الدلالة . ولعل أهم ما دعاهم إلى ذلك ما أورده عنهم " بالمر " من أنهم يرون إمكانية الوصول إلى معنى الجملة دون وجود أي سياق ، وذلك باعتبار أن متكلمي اللغة عليهم معرفة معنى الجملة قبل استخدامها في أي سياق ، وبناء على ذلك فإن المعنى يظهر مستقلاً عن السياق ويستطيع اللغويون دراسته دون الإشارة إليه. وقد رد عليهم " بالمر " رداً حاسماً حيث قال مفسراً : « بأي معنى يمكن أن نزع أن نعرف معنى جملة ما دون الاعتماد على السياق ؟ » ثم حاول الإجابة بما يلائم زعمهم بأنه « يمكننا أن نأتي بجملة أخرى لها معنى مشابه - جملة مرادفة لها - ومن هنا قد يكون حسناً أن نزع أن معرفة تشابه جملتين في المعنى هو نفسه معرفة إمكان استخدامها في سياقات متشابهة. »³

وهو بهذا يشير إلى الوشائج القوية التي تربط المعنى بالسياق ، وقد نبه " عبد القاهر الجرجاني " إلى دور السياق في الكشف عن الاختلافات الواردة بين الجمل المتشابهة في المعنى العام إذ يقول : « ... لا سبيل أن تجيء إلى معنى من الشعر ، أو فصل من النثر فتؤديه بعينه وعلى خاصيته وصنعتة بعبارة أخرى حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك ، لا يخالفه في صفة ولا وجه وأمر من الأمور ، ولا يغرنك قول الناس : قد أتى بالمعنى بعينه ، وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه فإنه تسامح منهم ، والمراد أنه أدى الغرض ، فأما أن يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون عليه في الكلام الأول حتى لا تعقل هاهنا إلا ما عقلت هناك ... ، نحو أن تنتظر إلى قوله تعالى : " وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " [البقرة / 179] وقول الناس : (قتل البعض إحياء للجميع) فإنه وإن كان قد جرت عادة الناس بأن يقولوا في مثل هذا أنهما عبارتان معبرهما واحد ، فليس هذا القول قولاً يمكن الأخذ بظاهره أو يقع لعقل شك أن ليس المفهوم من أحد الكلاميين المفهوم من الآخر. »⁴

من هنا نلاحظ أن قضية الترادف لم تعد تخص المفردات وحدها ، بل تعدتها إلى الجمل ، ومن ثم فإن ما قيل عن الجمل و ترادفها يمكن أن يقال عن المفردات ، إذ يمكننا الرد على منكري دور السياق بفعل مثل : " أدرك " ، أو أنه يعني " رأى " أو " بلغ " فإنه التركيب الحقيقي المنطوق بالفعل هو الذي يمكنه وحده أن يجيب عن هذا السؤال .

فنحن نقول : « مشى حتى أدركه . » أي لحق به و : « عاش حتى أدركه زمانه . » أي عاصره ، و : « أدرك ببصره . » أي رآه ، و : « أدرك الغلام . » أي بلغ .⁵

أفاد الغربيون المحدثون من تراث العرب ، ومن علمهم الغزير في ميدان السياق الدلالي ، وتوجهوا للعناية به ودراسة أثره في فهم المعنى ، وأعانهم في ذلك تطور وسائل البحث اللغوي واكتشاف كثير من الحقائق اللغوية المهمة ، ولا سيما في علمي الدلالة والأصوات ، لذا عمد " فيرث " إلى صياغة نظرية السياق الحديثة التي صارت فيما بعد مرتكزا لأصحاب المنهج اللساني ومن أهم أصولها :

- أن الكشف عن المعنى لا يكون إلا بوضع الألفاظ في سياقات مختلفة إذ يتحصل المعنى بحكم العلاقة بين الألفاظ و ما يجاورها .

- أن دراسة المعنى تتطلب تحليلاً واعياً للسياقات والمواقف التي ترد فيها الألفاظ حتى ما كان منها غير لغوي ، فقد دعت إلى اعتماد المقام أو العناصر المحيطة بالموقف الكلامي ، مثل طبيعة الكلام ودلالاته المختلفة ، وأثره الفعلي على المتلقي . وشخصية المتكلم والمتلقي والظروف الاجتماعية واللغوية المحيطة بالنص .

ويرى " Ullmann " " أولمان " أنه : « بعد أن يجمع المعجمي عدداً من السياقات الممثلة التي ترد فيها كلمة معينة ، وحينما يتوقف أي جمع آخر للسياقات عن إعطاء أي معلومات جديدة يأتي الجانب العملي إلى نهايته ، ويصبح المجال مفتوحاً أمام المنهج التحليلي » . وبهذا يخفض العدد اللامحدود من الأحداث الكلامية الفردية المتنوعة إلى عدد محدود من الأحداث الثابتة .⁶

وقد أولى المحدثون عناية خاصة بالسياق في تفسير الحدث الكلامي فهو لدى " فندريس " المعين على تحديد قيمة الكلمة ، غير أن الذي أُلْعَ إيلاعاً كبيراً بالسياق في الثقافة اللسانية المعاصرة هو الباحث الإنجليزي " فيرث " " Firth " الذي ارتبط اسمه بما يسمى النظرية السياقية التي اعتمد فيها - مثل اللغويين الأمريكيين - على عمل وتفكير الأنثروبولوجيين⁷ . لأن السياق وحده يحدد و يجرّد الكلمة من كل الدلالات التي يمكن أن تتبادر إلى الذهن عند سماعها مفردة ، كما أنه لدى " ستيفن أولمان " وحده القادر على مساعدتنا في إدراك المتبادل بين المعاني الموضوعية و العاطفية و الانفعالية ، و لذا فهو يعد نظرية السياق حجر الأساس في دراسة المعنى . فالعديد من أهلوا السياق في دراستهم للدلالة اللغوية معتقدين أن الدلالة لا يمكنها أن تدرس إلا حينما تكون الكلمات موضوعاً في سياق . يقول س . شايز : « إن الدلالة الحقيقية لكلمة ما يجب أن توجد ضمن ملاحظة ما يمكن أن يصنعه إنسان بهذه الكلمة . »⁸

وقد يبالغ بعضهم فيلغي أي دور للكلمة في تحديد المعنى و يعطي السياق الدور الأول في ذلك ، إذ ذكر " جون لاينز " أنه « لا يمكن فهم أي كلمة على نحو تام بمعزل عن الكلمات الأخرى ذات الصلة بها ، والتي تحدد معناها . » ، وفي هذا إلغاء لتفرد المعنى المعجمي الأصلي للكلمة المفردة للدلالة ، وتقليل لأهميته الانفرادية ، لأن الواقع اللغوي يؤكد « أن في كل كلمة نواة صلبة من المعنى . نسبياً . ويمكن تكييفها بالنص ضمن حدود معينة . » كما أن من اللغويين من اعتبر المنهج السياقي خطوة تمهيدية للمنهج التحليلي ، ومن هؤلاء " Ullmann " الذي صرح بأن « المعجمي يجب أولاً أن يلاحظ كل كلمة في سياقها كما ترد في الحديث أو النص الكلامي ، بمعنى أننا يجب أن ندرسها في واقع عملي " In opération " (أي في الكلام) ، ثم نستخلص من هذه الأحداث الواقعية العامل المشترك العام ، و نسجله على أنه المعنى (أو المعاني) للكلمة . »⁹

فقد قيل : ليس للكلمة دلالات ، بل إن لها استعمالات ، أي مواصفات متجددة .
عندما يعتمد المتكلم على الكلمة ، فإنما يختار ما يناسب السياق الذي تجري فيه عملية الكلام ، ولا يأخذ كل الكم التراكمي الذي صار للكلمة على مسارات ، بعضها قديم ، وبعضها محدث لذلك نرى " بيريير جير " يقول : « لا يزدوج المعنى الأساسي و المعنى السياقي . هناك دائماً معنى واحد لكل حالة ، إنه المعنى السياقي ، فالكلمة ضمن سياقها تقابلها صورة مفهومية واحدة . »¹⁰

و يمكن القول إن لكل كلمة معنى معجميا ، يمثل معناها الحقيقي و معنى تاريخيا تكتسبه بفعل الاستعمال العُرفي ، ومعنى ظرفيا أنيا تكتسبه في سياقات خاصة و ظروف محددة يعيشها المتكلم . والدلالة المختلفة الوجوه أو الجهات هي نتيجة ما يفرضه السياق أو المقام من رقابة على المكونات المجتلبة إلى محيط الكلمة ، بدءا بأبسط مكون ، وهو الحرف . ولا أعني الواحد من حروف المباني ، بل القسيمة للأفعال و الأسماء ، إذ السياق بمختلف أنواعه بما في ذلك مقصد المتكلم في موقف الخطاب ، هو الذي ينتقى من الحروف التي يتعدى بها الفعل ، فمثلا الفعل " قضى " يتردد بين دلالات مختلفة ، وهو متعد بنفسه ، كما أن له معان أخر متعديا بغيره¹¹ ، تختلف باختلاف ما ينضم إليه من حروف التعديّة : " قضى عليه " يعني قتله ، و " قضى به " أي حكم بواسطته على أن الباء للدلالة ، و " قضى من " بمعنى أصاب ونال، كما في آية الأحزاب، وهي قوله تعالى: " وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا. " [الأحزاب/ ٣٧]

ونظير هذا كله في اللغات الأخرى ، ما نجده في الإنجليزية ، من نحو كلمة " take " ، التي تتباين معانيها هي الأخرى باختلاف ما قد يضم إليها ، وفق حاجيات السياقات المتنوعة :

- امتلك أو اقتنى : take over
- تحمل المسؤولية : take on
- عوض أو استدرك : take up
- هدم أو قوض : take down
- أدخل : take in
- شابه و مائل : take after
- فر أو تشرد أو هام على وجهه : take to¹²

وكان الدلالة السياقية لا تقبل التجزئة إلا لمعرفة طريقة التركيب التي انتهت إليها ، وعلى هذا فدراسة معاني الكلمات تتطلب تحليلا للسياقات و المواقف التي ترد فيها ، حتى ما كان منها غير لغوي . ومعنى الكلمة - على هذا - يتعدل تبعا لتعدد السياقات التي تقع فيها ، أو بعبارة أخرى تبعا لتوزعها اللغوي¹³ . والمقصود بالمعنى السياقي هنا : مجموع حالات الدلالة ، بحسب سياقات نفسية وعاطفية واجتماعية ، وثقافية متباينة ، واحتمال الكلمة لواحدة من تلك الدلالات هو نفسه ، والاستعمال هو المرجح ، أو دعونا نقل : المفوض للمقصود ، والملغى لبقية الاحتمالات¹⁴ .

فالاحتمالات الواردة لمعاني الكلمات كثيرة ، ولا بد للمخاطب معرفة الاحتمال الجائز أو المرجح، وهو الذي توضحه السياقات و المواقف التي يرد فيها .

• الهوامش والإحالات :

- ¹ محمد الأنطاكي : الوجيز في فقه اللغة ، مكتبة عبد السميع عفش للطباعة و النشر و التوزيع ، ص 375
- ² ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللغة ، ترجمة د/كمال بشير ، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، د ط ، د ت ، ص 70
- ³ أف آر بالمر : علم الدلالة ، ترجمة د/صبري إبراهيم السيد ، دار المعرفة الجامعية ، د ط ، د ت ، ص 70
- ⁴ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ت السيد محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، 1992، ص 176.177
- ⁵ ستيفن أولمان : دور الكلمة في اللغة ، ص 58.57
- ⁶ أحمد مختار عمر : علم الدلالة ، عالم الكتب ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، 1988 ، ص 72
- ⁷ دبه الطيب : مبادئ اللسانيات البنيوية – دراسة تحليلية ابستمولوجية – ، دار القصة للنشر ، الجزائر ، الطبعة الأولى ، 2001 ، ص 203
- ⁸ الطيب دبه : المرجع السابق ، ص 203
- ⁹ أحمد مختار عمر : علم الدلالة ، ص 72
- ¹⁰ نوارى سعودي أبو زيد : الدليل النظري في علم الدلالة ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، الطبعة الأولى ، 2007.
- ، ص 155.156
- ¹¹ المرجع نفسه ، ص 157
- ¹² نوارى سعودي أبو زيد : المرجع السابق ، ص 158
- ¹³ أحمد مختار عمر : علم الدلالة ، ص 69
- ¹⁴ نوارى سعودي أبو زيد : الدليل النظري في علم الدلالة ، ص 156